بحث الشهر

الإنسان في التاريخ

بقلم محيي الدين محمد

ان تاريخ الحضارة ليس الا مجموعة الرفوض ضد تبرئات الاخلاق، والدين، والعلم.. ليس الا التنحية المستمرة لانسان الفصيلة، كيما يتحتم على انسان الوعي ان يثبت قدراته.. وليس عمل المؤرخ اجتذاب ادلة تعين الخط الهابط الذي حفره لانفسهم بشر السلالة، وهم من ظنوا ان معنى التقدم ليس الا محض الارواء المتدفق لعطش الفقراء ورغبتهم النارية بالاثراء. ان عمله يكمن في الحصيلة التي يخرج بها ازاء تطور الانسان الاقتصادي والاجتماعي.

.. اما الانسان الوعي فقد ترك لهمه في ان يجتذب لنفسه الف دليل على بؤسه، وفقدانه الصارم لكل امل، وكان بامكانه ان ينام ليله رخياً هانىء البال.. فيما لو ترك لرغبة او رغبتين ان تحكماه، وان تعطيا لحياته معناها.. ولكنه كان اكثر نظافة ونضوجاً من ان يدع الاشياء الصامتة تعلو فوق مستواه الوجداني: لقد رفض احبولة التقدم التي هيأها له بشر اعطوا للاشياء معنى فوق معناها، ووافق ان يثبت في مقدمة قضاياه مشكلة الحرية الانسانية.

.. فاذا كان عمل المؤرخ هو تنظيم ردود الفعل التي قامت بتأثير جمود الاشياء امام تقدم الانسان، بصورة تطور عجيب فان جهودنا نحن بالبحث عن [الانسان] في غيم الاوضاع الراهنة، ليس الا رفض انسان السلالة الذي يهم المؤرخ، وقنص انسان الوعي الذي يُنحّى باستمرار.

كان الفكر، على مر العصور، يجتذب لنفسه [انسانه المطلوب] من معكوس الانسان [كما هو] ونقيضه.. فلم يكن يسمح لاهواء الانسان العلوية ونزواته ان تكون عنصراً داخلاً من تكوين انسانه في واجب وجوده. ولم يكن غريباً بعد هذا، ان يصبح هذا الانسان (المطلوب) مجرد دعوى قائمة في اذهان مبتكريه.. بينما كان البشر العاديون يسبحون في تيارهم الرتيب، رافضين ذلك الانسان (المسلاة..) والذي ظل يشنق في عقل كل مفكر.. على مدى الزمان.

***

الانسان المطلوب في العصور القديمة.

لم يستطع البشري المؤلف من غرائز وعضلات وروح ان يعيش حياته بدون مثل.. فان تأملاته التي فرضت عليه فكرة انه المخلوق الاسمى في هذا الكون، جعلته يحاول تنمية فكرة الانسان السلطة... والمسيطر على كل تلك الصحارى والاقطار... بما فيها من حيوان ونبات وصخر...

وساعدت الميثولوجيا الشعبية المتمثلة في اغاني الشعراء المتجولين واساطيرهم في خلق ذلك الانسان البطل، سليل اولئك المردة من رجال (هيلاس) الذين سقطوا تحت أسوار طروادة... وكان لا بد من خلق ذلك الانسان – كما هو في الالياذة والاوديسة والرامايانه – لان فكرة (النموذجي) قد تطورت في البشر، فبعد ان كانت (الوحش الاكثر توحشاً) اصبحت (الانسان الاكثر إنسانية)[1]، فنظر بالتالي الى امكان خلق الفرد الذي يعلو على الفردية، الانسان الذي يخطو بعيداً عن التمثل الحيواني، رافضاً غريزته التي تدفنه راغماً بجوار (وحيد القرن، والفهد الهندي الاسود). فاذا كانت حياة البشر لا تختلف عن حياة الحيوان فوق هذه الارض، فلا بد من وجود (فكرة) ترقى بهذا الانسان العاقل – والذي يفوق الحيوانات ادراكاً – من بربرية وضعه الى وضع آخر يتفق ومركزه.. وخلق الانسان العجيب: هرمس. اجاثنون. اخيل. اجاكس.. الانسان الخرافي، البعيد عن التعين.. والذي ليس الا قريباً للاله، وكان مستحيلاً ان تلغى عن هذا الانسان كل غرائزه، اذ كانت الآلهة نفسها تسكر، وتحب، وتخطف العذارى..

واضطرت الثقافة تحت إلحاح المعقولية ان تبحث عن إله جديد، سكن في (مُثل) افلاطون: فهو لا نهائي، وهو فكرة خارجية تقابل التخيل الداخلي، وقد اضطر الى فصل العقل عن المادة، لاستحالة الجمع بينهما في

---

١ يرى (تايلور) مخطئاً، ان الاستحياء Animism هو اصل الاعتقاد بالاساطير والآلهة..

جوهر واحد ١ . فوجد الاله الفكرة ، وبجانبه المادة وحدها ، وكان يمكن للثقافة ان تفترض الهاً خارجياً يمزج بين الفكرة وبين المادة التي عزلت . ولقد رفض (افلاطون) الانسان العادي في جمهوريته (الانسان الاناني · الساذج . الغريزي . الحيوان) ودفع في اول قائمته بالانسان الفكر المجرد ، الفيلسوف ، الباحث عن جوهر (جوبيتر).. ولما رفض الانسان العادي اصبحت الوسائل الطبيعية للوصول الى الانسان الفكر غاية في التعقيد ، فقد صلب في صميم الصحراوات والكهوف ، واصبح التأمل في الكواكب وما وراء المظاهر قانوناً لتعطيل مواهب الانسان الحي وجعله مثلبة . وكان مستحيلاً ان يصل البشر العاديون لهذه المرتبة : رفض العالم .. وابتعد الانسان الفكرة عن الانسان الحي ..

وسنلاحظ فيما بعد ان ظهور الابيقورية ، والتي ليست مرحلة الا لانها مجرد رد فعل ، كان ضرورياً بالنسبة للمحنة السابقة ، والتي حاولت الوقوف على قدم واحدة باثارة فكرة الروح وحدها ٢ .. ان ما هو صميمي في الانسان لا يستطاع مجرد رفضه ، وازالته على اساس فكرة او سواها .. وقد أنبأنا (بونافوس) ٣ فيما بعد ، ان (تابيس) كانت بالنسبة له كل شيء ، فهي الفكرة ، وهي الغريزة ، وهي المادة ، وهي الروح .. وقد فطن المسكين الى هذه الحقيقة في اللحظة التي كانت تموت فيها.. فهل يستطيع وقف الزمن .?!

كان مستحيلاً اذن ان ترفض القوة المستعرة الحميمة في الانسان، وبقي اولئك النفر الذين اختاروا العزلة الصارمة ، في قلب صوامعهم يجترون افكاراً معادة ، لا حلول لها ، ويخلقون نظرات غيبية فيما وراء الطبيعة، ولم يصلوا للانسان الرب .. الذي كان مختفياً باستمرار في نفوسهم الداخليةولم يكن يظهر لهم الا عندما تثار قضية الحرية ..

وقد عمدوا الى اختيار الانسان الجسد ، لفترة ضئيلة جداً في التاريخ ، ولكنها اخرجت لنا الانسان (الردة) الحيوان .. والذي لم يستطع تحمل عبء انسانيته ، فحاول بث معنى وجوده في محض شبعه الجنسي والعضلي ..

وقد استقبل ذلك الانسان في تلك الفترة اللاهبة من التاريخ أسوأ استقبال ، وكشط من قائمة البشر النبلاء.. لانه – اخيراً – لم يكن سوى ابن عم للأورانج اوتان ..

***

الانسان المطلوب في العصور الوسطى .

لما رفض انسانا الروح والجسد ، ادارت الثقافة رأسها كيما تخلق قبلة جديدة وفي نفس الوقت كشفت قانوناً هاماً : ان الانسان المطلوب لا بد ان يكون قريباً جداً .. بين انسان (افلاطون) المبعد في السماء، وبين انسان (ابيقور) المنحط في الارض ..

وكان لا بد للثقافة ان تهيء ديناً آخر ، يصبح ابطاله ثبوتاً في السموات ، مجرد فكرات غير متعينة ..

ووجد الدين الجديد : دين الرب الجالس على عرشه السرمدي ، دين الملائكة المجنحين ، دين الاساطير .. والذي اعتمد على خيال الانسان الرعديد كيما يثبت قوائمه : فكيف نثق في خضوع البشر اذا لم تكن هناك اقطار تفرق ، وحضارات تصيبها الصاخة ، ومدن يمتها الطاعون! .? ولم يكن البشر بحاجة الى كل تلك المخوفات ليدخلوا ذلك الدين افواجاً ١ .. فقد عمدت الثقافة لتهيئة فردوس غير ارضي ، واختيرت رغبة انسانية بعناية فائقة .. هي رغبة الخلود ، ووشيت جيداً ، ثم دفعت في وعي البشر : «إما خلود في جهنم .. واما خلود في فردوس .! » وقد كان هذا كافياً لخلق الانسان في العصر الوسيط .. لم يكن هذا الانسان الا عبودية كاملة . لم يكن روحاً ولم يكن جسداً .. بل كان رقيقاً .. اصبح الانسان الذي كافح كل تلك السنوات كيما يثبت حريته ، عبداً مرة اخرى في سبيل وشاية عجيبة.. ذلك الانسان الذي حارب في ارضه لمنع فضول الهكسوس والمغول والحنين والبربر ، يصبح الانسان الخاشع الذي تستعبده كلمة ..

وقد احنى رأسه لفكره تقول بأن اختياراته [حتى اختياراته] ليست الا بأمر ذلك الكائن المتوحد في قلب كل شيء : لقد سلبوه حريته المرة الاولى ، ولبث حائراً : انني اقف هنا ، على الساحل .. واترك مائة من سرطانات البحر تمر .. ثم اختار بمحض مشيئتي السرطان الواحد بعد المئة ثم اقتله برمية حجر ..

لقد اخترت انا .. فما دخل الله في هذا الامر ؟ .?!

وكان واضحاً ان القضية تزداد سوءاً ، وكانت الردود على مثل هذه الاحجية وسواها غير مفحمة ، ولا منطقية .. ولكنها برزت تبريراً سقيماً: فان ما هو عقيدة يجب ان لا يناقش بالمنطق ،وفصلوا بهذا الشكل الحاسم بين الايمان والعقل..وكان هذا سبباً لنشوء ثقافتين ، احداهماالاهوتيةتتصل بعلم الله ، والاخرى علمية تناقش وتنظم وتكشف اسرار العالم الارضي .

ولما سيطرت الكنيسة على الدولة ، بدأت في قمع كل حركة فكرية٣، بوسائلها الوحشية ، وقد راح ضحيتها [كوبرنيكوس . جاليليو . كبلر] وهم من شاركوا مشاركة اكيدة في دعم صلتنا بالكون وبالتاريخ البشري وفي التقدم العظيم الذي بلغته الانسانية من تلك المرحلة الدقيقة من التاريخ.

---

١ كان تعذيب الاباطرة الرومان للمسيحيين من الاسباب العظيمة التي هيأت لذلك الدين ثباته ، وقد قورن بين فجور تلك الحضارة ، وبين الحب الذي يدعو له هذا الدين ، ولم يجد البشر امام هذه النظرة التي تبشر بطعم للحياة جديد ، الا حقيقة راسخة يجب الصراع من اجلها .. وقد كان وجود (القديس بطرس) صاحب المسيح الاثر القوي في دعم الدينالناشيء (حرية الفكر . ج . بيوري) .

٢ المصدر السابق نفسه .

٣ « القتل .. القتل او الكثلكة، وبين صيحات السباب والانتحاب اخذوا يشنقون الناس ، رجالا ونساء .. من الشعر ومن الاقدام ، على اسقف الغرف او منحنيات المداخن ، وكانوا يعذبونهم باستنشاق دخان القش المبلول ، وينتفون شعر اللحى والرؤوس ، وكانوا يلقون بهم في نيران اشعلت خصيصاً لهذا الغرض ... »

ص ٨٥ (ازمة الضمير الاوروبي) بول هازار – الكاتب المصري .

١ قصة الفلسفة اليونانية : احمد امين . زكي نجيب محمود .

٢ رأى الابيقوريون ان كل ما هو حسي اساس للحقيقة في العالم ، اما الجانب العملي من الحياة فمقياسه الشعور باللذة والالم. وقالوا بأن اساس السعادة هو التحرر من فكرةالخوف،ولا يوصلنا لهذاالتحرر الا ادراكنا لميكانيكية هذا العالم المادي ، فليس هناك ما هو فوق طبيعي ، وفوق انساني ، وليس البشر في هذا الوجود الا الحرية بعينها وليست الاخلاق عندهم الا اللذة فهي غاية الانسان ، وهي وحدها الخير . اما الالم فهو الشر الذي يجب تجنبه .. (المصدر نفسه) ولم تكن هذه الفلسفة الا رد فعل مباشر ضد فرط جود الاخلال عند الرواقيين ، وافلاطون خاصة ..

٣ من (تابيس) لاناتول فرانس .

لقد حاول اولئك الرجال فك اسر العقل البشري من مخالب محـاكم التفتيش ، ومن اضحوكة صكوك الغفران ، ومن احابيل اولئك الذين امتهنوا حرفة الكهنوتية فاثروا من وراءها ، واقتنوا الضياع وتناولوا طعامهم في صحاف الذهب ..

حدث كل ذلك بتأثير تلك القضية: فصل الايمان عن العقل. وقد اضطرت الثقافة بعد اعادة البحث من جديد ، لان تلقي نظرة فاحصة على قيمتهـا السابقة ، وخاصة بعد اثارة قضية حرية الانسان ، وبعد ان اصبح للعقل كل السيطرة ، حتى انه بدأ في مناوشة العقيدة ، والحط من قدرها ..

كان الانسان المطلوب في ذلك العصر ، فرداً لا يمت بصلة للبشر ذوي التاريخ المتطور ، كان مخلوقاً اختص بالعناية الالهية . وقد بنيت الكواكب والحجارة والشمس والبصيلات لتسخر في خدمته .. وقد كان المسكـين بحاجة لهذه الحجة كيما يثبت من كبريائه .. وقد علموه ان لا معنى للتطور وانه قد خلق هكذا منذ البدء ، بسحنته ، واعصابه ، ولحمه .. وقد كان لهذه القضية وجهان: احدهما المعنى الظاهري ، والآخر هو المعنى الدفين : ستظلون هكذا، ولن تصلوا لمرتبة اسمى .. دونكم الارض والسماء .. فلا تحاولوا الوصول لله .. لا تحاولوا .! وقد كبت البشر فضولهم ، واحنوا رؤوسهم ، وبعثروا جهودهم في محض تقـديس السر الالهي قابعين في سكون الصحراوات الاليم ..

.. لم يكن امام الانسان الحقيقي الا ان ينسحق تحت هذه الوطـأة العنيفة ، ان يلبث في جموده الميت .. منتظراً ان تلتفت نحوه الثقافة مقيمة له هدفاً آخر .. وقد بنيت فكرتا الخلاص والزهد السماويتان ، على ان يرفض البشر العالم ، آملين في طهر العالم الاخر .. وقد قابت البشـرية شفتها السفلى محتقرة كل (زيف) الارض المتمثل في الحياة الطيبة الثرية ، وفي اجتناب رفض ما هو انساني كأحكام الغريزة الجنسية ، وفي التمتع بكل جمال العالم كما هو ..

وخلق الانسان (النسخة) اي ذلك المتكرر ، والذي تعطـى لحياته معنى ، تلك الخطوط البادئة بحركة (النهى) : لا . ! لا تفعل . لا تزن . لا تسكر . لا تمش في الارض مرحاً ..!

اخيراً .. لقد وجد الانسان تلك العصا التي تحزه وتدفعه وتسيره ، وترتب له حظوظه ، ثم تعاقبه في النهاية .. ولم يفطن المسكين لمنتهـى التناقض في هذه القضية اليسيرة . فلو كنت مسؤولاً عن حياتي - وهذا وحده يعطي المعنى لعقاب الله لي - فذلك لانني حر.. فلو كنت في الحقيقة مالكاً لهذه الحرية ، في التصرف بقدري الخاص .. فما هو عمل الاله .. وكيف تسبق معرفته لافعالي ونواياي ؟!

وبقي الانسان النسخة حبيساً في صومعته ، حتى اطل بصيص خافت من نور اولئك الذين صلبهم واحرقهم ومثل بجثثهم ، وكان مستحيلا ان يوجد الانسان الطاهر البريء في وبال هذا العالم الحيواني ..

وكان رفضهم للعالم الارضي سبباً كبيراً في ان فئة ضئيلة من (العقلاء) رسخت هذه التعاليم ناشرة اياها على اوسع نطاق، لانها كانت الفئة الفريدة التي استفادت من هذا الوضع العجيب .. وجعل البشر يتشبثون بمحاولة ظاهرة الفساد : ان يصبحوا في براءة الانبياء .. محاولين في يأس وصلابة بتر عواطفهم ونزواتهم وشهواتهم ، وقد باءت محاولاتهم المتكررة لاثبات امكان وجود مثل هذا الانسان بالفشل الكامل ..

لم تكن النتيجة الخارقة والتي حدثت عقب فرض الانسان العقائـدي على الضمير البشري ، الا لازمة عنيفة لكل ضغط فوق حرية البشـر ،

وقد اضطر رجال الكنيسة الى افتراض خوارق غير طبيعية كيما يوالموا بين العقيدة والعصر العقلي الذي بدأ في فتح اذنيه واستعمال منطقه الخاص .

فقد ظهر رجال من أمثال (جاليليو . كبلر . هالي . برادلي) كي يفحموا انسان العقيدة . وفي الوقت الذي بدأوا فيه صنع تاريخ جديـد للبشر ، كان انسان العقيدة يؤمن بأن الارض هي الـ Hoap Kurper او الجرم الرئيسي في الكون ١ ،وان النظرية الجديدة للفلك (كوبرنيكوس) تناقض التنزيل ٢ ، وان الله لغرض يخفى علينا قد خدع المفكرين خديعة كبرى بأن خط على لوحة الارض كل مظاهر النشوء خلال عصـور متطاولة من القدم ، بينما في الحقيقة قد خلقها خلال ستة ايام لا غير ، كل منها نهار وليل ٣ ، وان السماء قبة زرقاء من معدن صاف وان فوقهـا شيئاً كحوض الاستحمام يمطر الماء الى الارض ٤ ، وان ثرى فلسطيـن تفيض لبنا وعسلاه ، بخلاف من يرى انها ارض بور جدباء ، وقـد اجبرت (طائفة السوربون اللاهوتية) عالما - كان قد بدأ يقرر اوليات جيولوجية بسيطة - ان يكتب انكاراً مشينا في كتابه : « اني ارجع عن كل شيء جاء في كتابي خاصاً بتكوين الارض ، وعلى وجه عام كل مـا يمكن ان يكون مناقضاً لقصة موسى ٦ ..» وان الله (لوى) الطبقات الجيولوجية وصدعها ثم املاها وعقصها بعد ان نثر في جوفها وخـدش في ظاهرها خدوشاً كمثل المجاري الجليدية ، ثم امـر شلالات (نياجرا) بان تنصب بكل ما فيها من قوة . كل هذا في غمضة عين .. لغرض لا يمكن تعليله ، ولكن ليظهرنا على جلاله٧ ..» ولما اصبح عدد انواع الحيوان يزداد اثر كل اكتشاف جديد ، فقد اخذوا يوسعون من حجم سفينة (نوح) يوماً بعد يوم ٨ ..

وقد بان منطق العقيدة المتناقض ، عندما سلم للماء كأصل للكائنات : الاصحاح الاول من سفر التكوين اية ٢٠ واولها « .. وقال الله لتفض المياه ..» ثم عادوا وآمنوا بأن الارض هي الاصل في الخلق : الجزء الثاني المعروف باسم (الرواية الهووية) في الاصحاح الثاني آية ١٩ : « .. وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البريـة ، وكل طيور السماء٩ ..»

وكان واضحاً بعد ان رسخت اصول نظرية التطور ، ان العقيـدة اصبحت في مأزق ، ثم تجدنا امام منطق جديد : ان المرء يمكـن ان

---

١ هذه الفقرة، والفقرات التالية لها ، والمرقمة هي من كتاب (الدين والعلم) والذي وقع بيدنا عارياً عن اسم مؤلفه ..

٢ (بوسيه) اسقف مو.

٣ (جوس) في سبيل التوفيق بين الجيولوجيا وسفر التكوين .

٤ الراهب المصري (قوزماس انديكوبليوسيتس) .

٥ في سنة ١٥٥٣ حوكم (ميخائيل سرفينوس) لانه طبع نسخة من كتاب (جغرافيا بطليموس) تكلم فيها عن ارض يهوذا ، وذكر انها ارض بخلاف ما تقول التوراة ، جدباء وعاقر .

٦ (بافون) .

٧ قيل عن حيوانات بعض الحفريات بأنها تصاميم لحيوانات سوف يخلقها الله في المستقبل .

٨ اثبت علم (الزولوجيا) ان عدد الانواع التي تعرف عـن الحيوان يزداد يوماً بعد يوم .

٩ استقيت هذه النظرة من النبع البابلي عن طريق اهل فينيقية.

يكون نصرانياً وداروينياً في نفس الوقت ١ » وكان هذا هو القول الفصل ، بان انسان العقيدة قد انهار ، وان مشكلة الخلق قد وجدت لها فروضاً اخرى اشد منطقية وثبوتاً .. واخذ العلم ينال انتصارا بعد آخر ، وبظهور (نظام الكون العقلي) لكادورث ، وبكشوف (هرشل وفرونهوفر) وعلماء الارخيولوجيا ، والباحثون في العادات القديمة كجورج سميث وسايس وجنسون ٢ ، تمكن الانسان في العصر الوسيط ان يلقي نظرة اشد فحصاً لما كان يؤمن به من قبل .. واصبحت اسطورية ما كان يعتقده سبيلا كي يدعم النظرة الجديدة في الكون ..

فقد تراجع هذا الانسان الصادق عن فكرته الاولى ، واقام تمثالاً (لكوبرنيكوس) وفي مايو سنة ١٨٢٩ اجتمع جمهور عظيم من (فارسوفيا) ليدشنوا التمثال ٣ .

ولما ثبت اخيراً صدق (جاليليو) اصبحت الكنيسة في وضع خطير وزلق ، حتى نهض (ماريني) ليبث اكبر ضلالة في التاريخ : ان جاليلو لم يحاكم لهرطقته .. بل لقلة ادبه !!

وكان واضحاً من تراجع العقيدة ٤ هذا التراجع السريع ، ان الثقافة تجهد لخلق قبلة جديدة ..

وما تكون .. غير العلم .. والذي ساهم مساهمة قاضية في اثبات حق العقل الانساني ؟!

الانسان المطلوب في العصر العقلي (ما بعد الوسيط) .

لما تهيأت الاسباب لجعل المنطق العقلي قيمة ثابتة لكل علم ، نظر الى الانسان في الكون ، بعكس نظرة (بوسويه) والتي يضمنها مؤلفه (ابحاث في التاريخ العام) والذي قال فيه : « إن الارض لم تخلق الا للانسان .. » ، اي اصبح الانسان المتطور هو معنى الارض .. هو الحقيقة التي انشأت نفسها في العالم متخطية بنفسها صلابة الحيوان ، وجنون الغريزة .. واصبح يطمح في امساك الانسان الادراك ، انسان العقل المطلق ، والذي شغلته هذه الفكرة فرفض لزمن ضئيل كل بواعث الحياة الزخمة ، وعطل روحه في جحيم الصبار والرمال ونجوم النجوم (عندما اصبح متصوفاً) وقد حاول في هذا العصر الجديد إلغاء نفس الانسان الذي طالبت العقيدة بالغائه : الانسان النزوة .. وقد هزها لوقت طويل ، تلك الانتصارات الرائعة التي أثبتها رجال امثال (لالاند . ألفونسو اوف كاستيل . فوكل . نيوتن).. واصبح لها الحق ان تقيم انسانا جديداً على حساب الانسان السابق ، والذي أصبح مرفوضا بالمرة ، فملى تناقضات القيم القديمة رسخ البشر الجدد اقدامهم ..

كانت الميتافيزيقا القديمة ، تبدأ من الله نازلاً حتى البشر ، واصبحت الميتافيزيقا الحديثة بتأثير (ديكارت) تبدأ من الذات صعداً حتى الله ، من الفكرة الى الروح .. من الانا الفردي الى الانا المطلق . وكان واضحاً ان ديكارت ، مع تقدمه الرائع لم يثبت في الحقيقة الا وجود الأنا الفردي ، فالحقيقة عنده تنتهي عند اول شطر (الكوجيتو) : افكر .. فانا اذن موجود .. وعلى هذا فكل استنتاج يأتي بعد هذه الحقيقة زائف وغير صحيح ..

رُفض الانسان الجسد ، كما رفض الانسان الروح ، وخلق انسان العقل ، نتيجة لذلك التقدم الهائل الذي فرضه العلم ، وظن تبعا لهذا ان نظريات (نيوتن وفاراداي) في طريقها الحاسم لحل لغز الكون .. ولم ينظر الى جسد الانسان الا كوسيلة لمرور (فكره) في التحقق الزماني والمكاني ، وبرز انسان (روسو) الذي اصبح له (الحق) في امتلاك حرية عجيبة .. « فحرية الاخلاق هي الوحيدة التي تجعله سيد نفسه ، فان في اتباع النزوة عبودية ، في حين ان طاعة القانون ، هي الحرية .. ١ »

وقد اصبح الانسان (الروسوي) موهوباً للدولة التي تضع في يده حريته على شروط .. واضحت الدولة هي (العقل) تبعاً لنداء «روبسبير» ، فكل ما هو لا عقلي ينحى ، اي كل ما هو غير منطقي فهو مرفوض ، وسُخر بالفلسفة القديمة ، وخاصة (افلاطون) . ان المذهب العقلي في الحقيقة يبدأ مع (ديكارت) الذى ينتصر له تلامذته (مالبرانش . سبينوزا . لينيتز) ويطلق عليه (بوسويه) « الدعامة العقلية للعقيدة المسيحية .. » . لقد رفض (ديكارت) الميتافيزيقا الاسطورية كما كانت ، وجعلها « تابعة للطبيعيات فاشئة عنها » ٢ ، وكذلك فانه يبعد المطلق كيما يعطي للعقل الانساني فرصة ايجاد الحقيقة . لقد فكر (ديكارت) كما فكر (بيكون) في عصر العقل الانساني « عصر الصناعة والآلات والتقدم العلمي .. » ٣ وكان الانسان الحق في نظره ، هو طالب العلم والفضيلة معا ٤ ، ذلك الانسان المستحيل ، القريب من انسان كونفوشيوس الذي عذب الشرقيون انفسهم لادراكه ..

وقد اصبح الكوجيتو نصاً حقيقيا للادراك ، ومنه نفذ (ديكارت) للميتافيزيقا الحقيقية .

ان الادراك العقلي لا يهتم الا بالعام ، بالافكار الكلية التي يؤمن بها العقل كله .. الانسان حيوان مفكر مثلاً .. وليس حيوانا (ابيض) لان البياض صفة خارجية ، تتبع المظاهر البيولوجية والجغرافية ، ولكن حقيقة الفكر ملموسة في كل انسان ابيض او اصفر او اسود باختلاف البيئية والفسيولوجية .. اي ان جميع الاحكام الخارجية حقائق ثابتة منفصلة عن النسبية الانسانية منفصلة عن ميزة التفرد الانساني التي تضع حقيقة خاصة لكل فرد .. «حقيقته الذاتية».

ان العقل لا يهتم بزهرة اللوتس الفردة ، والتي وجدت عند ضفاف جزيرة (الوراقين) على النيل ، والتي أنبتتها ظروفها الخاصة .. والخاصة جداً ، وهو لا يهتم بزهر اللوتس كله .. ان غايته تكمن في (النبات)

---

١ قال (جيمس ماكوس) بأن كلمة اللاهوتيين التي تقول بأنه اذا ثبتت صحة نظرية داروين فان النظرة اللاهوتية تموت .. لا يجب ان تنشر في الناس لخطرها ..

٢ حل هؤلاء الرجال رموز كثير من النقوش التي عليها من مكتبة (آشوربانيبال) من مدينة نينوى Nineveh ووقفوا على رواية في اصل الكون تطابق الاقاصيص التي ذكرت في سفر التكوين .

٣ نعم .!! كان (ثور والدسون) هو صانع التمثال ، وصانع فكرته ، ولكن تجاوب البشر العظيم كان رمزاً للغفرة يصدره الاف الناس الذين ساهموا بصمتهم ، وسكوتهم من تعذيب (كوبرنيكوس) وقد قدموا من كل اقطار الارض ليشهدوا ذلك الرجل النبيل الذي استحال صخراً ، بعد ان احال (صخرته الخاصة) .. حقيقته .. الى علم عام ..

٤ « ان السواد الاعظم من القوم العصريين يعتبرون الكنائس مناحف للديانات الميتة ، وموقف السائحين الذين يزورون اوروبا يدل بوضوح ، كيف ان الاحساس الديني قد استؤصل تماماً من الحياة العصرية .. » [الانسان ذلك المجهول (كاريل) ترجمة شفيق اسعد فريد ص ١٦٥] .

---

١ جان جاك روسو (العقد الاجتماعي)

٢ ، ٣ ، ٤ (قصة الفلسفة الحديثة) احمد امين . زكي نجيب محمود .

ككل .. في (الإنسان) مثلاً ، لا في (حسين التهامي) ، والذي هو سلسلة طويلة من عذابات اجداده وآمالهم، وضغط المحتكرين والاستعماريين على مصنعه لدبغ الجلود ،وحبه الجارف لرائحة البترول ، وغرامه الجنوني بالنكات الجنسية .. ان هذا الفرد يشجب ببساطة ، ويبحث في امكان حشره مع البشر الآخرين ليصبح واحداً له نفس خلال (بول وراغب وجيمس) ، أليس مؤلفا من نفس الغرائز ؟ أليست اذنه بنفس تعاريج الآذان الاخرى ؟ أليس له شارب ؟ وعلى هذا فان كرهه لابيه ليس الا (عقدة اوديب) * بدون ادنى شك !

ولما ضغط البشر في احكام الضرورات الوراثية والمجتمعية التي تضع لهم قالبهم المعين.. ابصرت الثقافة بالفخ المنصوب ، وعدلت في اللحظة المناسبة عن اتخاذ قرارها التاريخي .. وهو : وضع العقل كقيمة مطلقة .. وتلفتت تبحث عن مطلق جديد .. لايعزل عن الفرد فرديته ليقيم دولة افلاطون، وروسو ..

كان مستحيلاً فرض (الانسان العقلي) على البشر .. فقد اخذت حقائق (نيوتن) و (اقليدس) تتوارى ، وتبحث لها عن اركان مظلمة ، فقد تناول البشر المحدثون (الهندسة القديمة ، ونظرية الجاذبية) وبحثوا ونقبوا حتى قطنوا اخيراً الى حقيقة رهيبة : « إن من الواضح ان عين الانسان المحدودة لا تستطيع ادراك كل الموجات الموجودة في الطبيعة ، ولما كانت معلوماتنا عن الكون تعتمد على الحواس الناقصة (حكم العلم التجريبي) فان ادراكنا للحقيقة الخارجية كان ناقصاً ، فازدادت الهوة بين الانسان والكون بتأثير تلك النظرة الخاطئة ، وهي الاعتماد على حواس الانسان وعقله ١ . » وقد تقهقرت هذه النظرية التجريبية في بدء سنة ١٩٠٠ عندما وضع (ماكس بلانك) النظرية الكمية والتي اعتمدت على الرياضة المحضة (اي الحقائق الخارجية التي لا تفترض عقلا لايجادها ، فهي موجودة سواء فكرنا بها ام لم نفكر (٢ + ٢ = ٤) وقد تناول (بلانك) ومن بعده (انيشتاين) الرياضة القديمة ، اي هندسة اقليدس ، وجاذبية نيوتن – واثبتا ان الاعتماد على عقل الانسان الناشيء وحواسه بمداها الضيق قد هوى بالحقيقة الى واد سحيق مما اضطرهما الى اتخاذ الارقام المحضة – الخارجة على العقل الانساني ، وان كان نفس هذا العقل هو الكاشف لها – وسيلة لتتبع الحقيقة ..

« وقد ثبت ان النظرية الكمية ٢ ، ولو انها تحدد بكل دقة ، العلاقات الرياضية التي تربط الوحدات الاساسية للاشعاع والمادة الا إنها قد زادت الغموض في معرفة الكون ، وقد مال معظم علماء الطبيعة الحديثين الى الاعتقاد بانه لا تمكن معرفة حقيقة اي شيء .. ان العلم لا يستطيع الا اثبات مشاهدات ، وان الفاصل بين الانسان والحقيقة قد اتسعت فجوته ، وذلك بعد ان اتضح عجز حواس الانسان . ان الطبيعة الكمية تهدم اساسين من اسس العلوم المعروفة منذ زمن ، هما اساس التعليل واساس التحديد .. وذلك لاننا اذا اعتبرنا الاحصائيات والاحتمالات ، نجد ان النظرية الكمية تبتعد عن كل رأي يقول بأن طبيعة الاشياء تتبع فكرة السبب والمتسبب ٣ ...

---

* اقام (فرويد) علم النفس ، على ان يكون منطقا عاما ، تنطبق احكامه على كل البشر .. وقد اصبحت هذه النظرية مشكوكاً في صحتها ..

١ ، ٢ ، ٣ من الكتاب الهام جداً (العالم وآنيشتاين) ترجمة (عاطف البرقوقي) سلسلة اقرأ . العدد ١٥٤ ٢ من المعلومات المعروفة للجميع ان الاجسام عندما تسخن تتوهج وتبعث اشعاعاً احمر ، ثم اذا ارتفعت درجة الحرارة بعد ذلك ، فان لون اللهب يتغير الى برتقالي ثم الى اصفر ثم ابيض . وقد حاول العلماء محاولات مضنية خلال القرن الماضي لاستنباط قانون يبين العلاقة بين الطاقة المشعة من الجسم الساخن وبين طول الموجة ودرجة الحرارة . وقد فشلت جميع المحاولات حتى وفق العالم (بلانك) الى ايجاد معادلة رياضية تتفق مع النتائج العملية . واغرب ما في معادلته انها اسست على الافتراض القائل بأن الطاقة المشعة تنبعث لا في ينبوع متصل ، بل في وحدات متقطعة كل وحدة منها تسمى « كا » .

٢و٣ المصدر نفسه ص ٢٦/٣٧/٣٨ .

١ « ان فشل علم الصحة والطب حقيقة غريبة . فعلى الرغم من التقدم الذي احرزناه والتهوية واضاءة المنازل وعلم التغذية والحمامات ، والالعاب الرياضية ، والفحص الطبي الموسمي ، وزيادة عدد الاطباء الاخصائيين زيادة كبيرة ، فان يوماً واحداً لم يزد على الحياة البشرية » الانسان ذلك المجهول ص ٢١٤ .

٢ ان حضارتنا الشرقية لم تزل في الحقيقة ، محتاجة للمرور في عنف هذه التجربة اللاهبة ، والتي مرت بها الحضارة الغربية ،فهي وان لم تمط كل شيء ، مانحة لنا قوة المظهر المادي ، والذي يكمن في (وجوب) انهاض فلاحينا ، وصناعنا ، ومدارسنا .. وعبوديتنا على اطلاقها ..

ان عصر العقل يثبت فشله ١ ، فليس من حقيقة عامة يستطيع ان يعلنا اياها ، وقد اكتشف البنسيلين ، والاورانيوم ، وشق قلب الذرة ، ولكن البشر لا يعلمون عن الكهرباء الا انها وسيلة تتخذها الاشياء .! وان الجاذبية ليست الا قوة تحددها هندسة المجال الخاص لكل جرم في الفضاء .! وقد خدش سطح الارض ، وتكون بهذا علم الجيولوجيا ، واستنبطت اهم معادلة تاريخية في حياة العالم وهي ان (الطاقة = ك×ص٢) ولكن ما زالت دفائن واسرار مطمورة على بعد مخيف من قلب الكون، والارض نفسها . مجهولة ومطلسمة .!

وقد ينجح البشر في الكشف عن كل خفايا الارض٢ ولكن بعدم الدائم عن اكتشاف حقيقة جوهرية واحدة ، سيثبت لهم ان لا شيء يسبب هذا الفشل الا اعتمادهم على احكام العقل القاصر ، ومقاييسه الضيقة والتي وضعت كي تتخذ لعالمنا هذا الارضي : ان العقل في الحقيقة ، لا يعطى للبشرية الا (الكشف) . انه يلقى بضوئه على ظواهر الاشياء . انه يسأل : كيف صنع هذا الشيء ؟. وينسى الاستفهام الصميمي : لماذا صنع هذا الشيء . وهو انما يضيف للطبيعة ، يلهث مسرعاً خلف المجرى الضيق الذي اتخذته لنفسها اوضاع الاشياء .، وهو لا يستطيع ان يبتكر شيئاً .. ومعظم (ترقياته) لا تسهم مباشرة في جلب المساعدة للبشر ..والا .. فما هو في الحقيقة ذلك الاثر المباشر الذي صنعه (قانون جاذبية نيوتن)في (وان تنج) الفلاح الصيني الذي يزرع الارز في وادي اليانجتسي .؟ ما الذي افاده (الله جابو) صانع الفخار السوداني من نظرية حيود الضوء .؟

ان العلم يبتعد رويداً عن الواقع الانساني ، وسيصل قريباً الى مرحلة الميتافيزيقيا القديمة ، ويصبح تطبيقه على واقعنا الارضي مستحيلاً . ومغالى فيه ..

وبذلك رفض هذا الانسان ، سليل اولئك الابطال الذين نحوا انسان العقيدة .. وانشأوا انسان النور .. ولكن .. اليس قفص الذهب ، او

سجن النور ..، سجناً آخر تضغط فيه ، كأي سجن قذر .. ملكة الانسان ؟!

لم يستطع الانسان الانضواء تحت الاحكام العامة ، ولم يستطع رفض غريزته [1] ، وتفرده الذاتي .. فاخذ العقل يبتعد عن ان يكون السبيل الوحيدة لخلق انسان العصر فيا بعد الزمن الوسيط ..

الانسان المطلوب في الحضارة الحديثة

لم يُرفض انسان العقل [2] ، بل خطت الثقافة خطوة اخرى في نفس السبيل كي تستوثق من صلابة الطريق ، واتخذت خطة عجيبة في خلق الانسان الحديث : فقد قرنوه بالآلة .. الانسان الذي لا هو بالروح ولا العقل .. الانسان الاداة ، الذي (يُستخدم ، ويُنحى ، ويُقتل ! .) .. نشأ هذا الانسان بسبب من فشل الاديان والاخلاق في معالجة الاوضاع الاجتماعية البشعة ، ففي مقابل الحرية الفردية ، أُعطي الانسان وعداً ، بأن يعيش سعيداً وآمناً حتى يموت .. ولم تنشأ الآلة قديماً الا لتكون صلة بين الانسان والارض .. اما الآن ، ولفرط اعتماد الحضارة الحديثة على دقة الآلية والميكانيكية ، فقد اصبح الانسان هو الصلة بين الآلة والارض !! . ان ما كافح من اجله البشر طيلة هذه القرون يُشجب في هذه الاعوام . فاذا ما قام تحقيق الانسان الحديدي ، على مجرد رفض المجتمعات لكيانه الداخلي ، فان انسانيتنا اذن تحتاج ، كيما تصبح انسانية حقة ، ان ترفض ماضينا الثقافي والحضاري برمّته كي تبدأ من جديد بوضع خطوط للبشر الجدد غير قابلة للتطور .. فليس تاريخ الانسانية الا تنحية مستمرة لكل فكرة تقوم على قتل ذاتية الانسان . وفي هذا العصر المريب ، يقف الفرد امام هوة شيطانية تدعوه لها في كل لحظة ، واغراؤها يكمن في هذا النداء : (لا نحتاج منك الا عملك اليومي .!) .. وقد خلقوا من الرتابة والتكرار قانونهم الاول ، فلكي تنزع عن الانسان الحي ، كل فكرة عن الروح والنفس ، فانك يجب ان تبدأ بقتل الجدّة وروح التعطش للمجهول في نفس البشر ، يجب ان تستبدل ذواتهم بساعات دقاقة : السابعة طابور العمل . الواحدة طابور الغداء . الرابعة طابور الخروج . التاسعة الذهاب للمنتدى . العاشرة سماع نشرة الاخبار . العاشرة والنصف (طابور) النوم [1] !! وبهذا يتحول ، جديداً ، الانسان المؤلف من كل نقائضه ، الى انسان (انكسمندر) القديم ، والذي ليس الا مادة كالخشب سواء بسواء ، وليست ذاته الداخلية وخياله العجيب الفذ الا صرخات لضرورات الغريزة امام الجوع والانتشاء ..

كانت القارة السوداء ، هي المنبع الاعظم لكل رقيق الارض ، وزارعي التبغ والقطن في (جيورجيا . كارولينا . مسيسيبي) وكانوا يساقون من الكونغو واوغندة ومدغشقر ومن قلب تنجانيقا ، قاطعين عرض الاطلسي في سفن كالزرائب ليستقبلهم في الارض الجديدة طوفان هائل من الحقد والتعصب والاحتقار .. [2] وكان هذا اثماً دُمغ به الانسان في عصور سابقة ان يؤكد الرق البشري . ان يتحقق رخاء البيض بسواعد السود .. ان يبنى من جديد (برج بابل) على حساب المسلولين والموتى والمصابين بالطاعون والتفويد ، من بشر افريقيا .. وكانوا بحاجة ان يثروا على حساب اولئك البسطاء البرابرة [3] وقد اثروا حقيقة : فمن هي الدولة الاولى في زراعة القطن ؟ ومن هي الامة الصناعية الاولى ؟ . ومن يملك افظع وسائل الابادة . ؟! . ومن .. ومن . ؟ !! ..

كانت هذه الوصمة حقيقة كبرى في تلك السنوات : تعبيد

— البقية على الصفحة ٧٦ —

١ « فالعقل والجسم يشتركان معا في الانسان مثلما يشترك الشكل والرخام في التمثال ، فالانسان لا يستطيع ان يغير شكل التمثال دون ان يحطم الرخام ..» الانسان ذلك المجهول ص ١٧٢

٢ وقد لا يرفض هذا الانسان الى الابد ، فحاجتنا ، وخاصة في الشرق ، لم تزل ماسة الى انسان العقل الذي يكتشف ، ويصمم ويهيىء للجماعة البشرية سكناً انظف ، وطعاماً اشد فائدة ، ونزهات اكثر حلاوة ولكن اعتمادنا عليه كوسيلة نهائية نتوصل بها الى ادراك كل شيء قد ثبت عقمه ...

١ ما يرعبنا هو الشبه الكبير بين هذا الانسان ، وبين الدمية الميكانيكية التي تخرجها مصانع (واكاياما) في اليابان ، فعندما يبدأ عمل (الزمبرك) الآلي ، تمشي الدمية في خط مستقيم ، وتمد ذراعها وتغمز بعينها ، فاذا ما وضعت مائدة في طريقها فانها تصطدم بها وتقف .. جامدة صوانية كما كانت .. فاذا كان الفرق بين البشر الاليين ، وبين دمى (واكاياما) متعينا في قدرة البشر على امكانهم تجاوز الموائد الخشبية ، ومفارق الطرق .. فان حضارتنا الحقيقية اذن لتوشك بالانهيار ..

٢ اننا نسخر من الامة الاميركية المتعجرفة لانها تضطر الزنجي الى مسح احذيتها ، ثم تدلل على انحطاط الزنجي الادبي والمادي ، بأنه ماسح احذية « من مقدمة الانسان والسوبرمان » (برنارد شو) .

٣ انهم يصفقون لالبرت شفايتزر في كل مكان . شفايتزر الانساني ، طبيب الزنوج ، الرجل الذي نزح الى الغابات كي يضمد جراح زنجي ، وكي يشفي اخوانه الزنوج من الحمى والملاريا . انهم يصفقون لشفايتزر .. ومع ذلك يحتقرون كل زنجي .. في كل مكان ..

الانسان في التاريخ

– تتمة المنشور على الصفحة ٤٩ –

الطريق للرق البشري ، وقد وافق عليها من قبل (افلاطون) في مدينته الخرافية ، ولم يرفضهـــا حتى ذلك المفكر النبيل ارسطو ..

ان الحضارة الحديثة ، لترفض بشرف ان تمد يدها للرق القديم ، وهي تشيح بوجهها عنه ، بصفته وسيلة (مكشوفة .. وعادية ..) .. وقد ابتكرت في دهاء اسلوباً خاصاً للعبودية ينمّ عن عبقريتها الخارقة : فما من سفن للعبيد ، وما من سياط ولا تفرقة بين السود والبيض .. وقد رفضت العذاب الجسماني واصبح انسانها يملك منزلاً وطاهياً ومكتبة ، واصبح عضواً في لجان الخدمة العامة .. وقد يطفر احياناً الى مركز كبير وقد نظمت له حياته ، وغطى جسده بما لم يحلم به من خز .. ولكن الساذج لم يفطن الى ما سرقوه منه :

ان النشال المتمرس ، ليس في الحقيقة الا (نشالين) ، فهو يشغل الفريسة بشيء في يده اليسرى ، بينما تمتد اليمنى في هدوء ، ومن الجهة المعـــاكسة لتطبق على ما تريد !! وقد اكتشف (ثقات) الحضـــارة الحديثة هذا المغزى ، وطبقوه ببراعة على الانسان . انهم يجلجلون له بالاقراط ، ويغتصبون معنى حياته .. لقد منحوه بضعة اشياء ، ومنعوا عنه كل شيء .. لقد اعطوه مشبك رباط العنق الذهبي ، ورداء مخططاً ، وامرأة .. ولكنهم عزلوه عن كيانه : لقد نفذوا من جديد حكم الاعدام الذي امرت به محكمة التفتيش ان ينفذ في (برونو) : ان يقتل بدون اراقة نقطة من دمه ..!

وقد تكفلت العبقرية الفاسدة من البـــدء ، بان تحرق (برونو) حياً .. ولكن العبقرية المعاصرة تترك الفرد آمناً . انهم يدعونه يعيش ويحب ويختار صنف التبغ الذي يعشقـــه ولكنهم طووه داخل كهفهم المظلم . اصبح المسكين (مسماراً) في عدة النجار .. لقد اغلقوا كل عالمه ، وفتحوا له ثقبـــاً صغيراً كيما يعيش لمرة واحدة ، والى الابد حسب مايرون .

ان الانسان المطلوب في هذه الحضارة ليس ذاتاً ، وليس غريزة ، وليس روحاً .. انه لا يختلف عن القـــلم والفأس والمكنسة الكهربائية . انه اداة . وسيلة . شيء .. فهل يمكن خلق مثل هذا الانسان ؟ هل يمكن ايجاده ؟

الانسان المطلوب في الحضارة المعاصرة ..

كانت النماذج البشرية الماضية ، تعتمد على الفرد (الخارق) ، من هو اسمى من الانساني : الروح مرة . فالعقيـــدة . ثم العقل .. واخيراً الانسان الميكانيكي .. وقد فشلت كل هذه النماذج بسبب من جنوحها الحازم لفصل جزء من الانسان حيوي ، وكيما يزيد الضغط على الاجزاء المهتمة هي بها .. ولما كانت الحياة البشرية ، مجموعة عجيبة من حشود متناقضة لغرائز واحاسيس ، ومواد ، وادراكات ، والم ، وخجل ، وعري ، ومصائر .. فان ذلك الانسان الذي اختار بعناية ان يدرك كل هذه المتناقضات ، عن طريق (حاسة واحدة) قد بـــلي بالفشل الضروري [1] .. وقد فشلت ايضاً فكرة الانسان الذي تشجب عنه فرديته ، كيما يتخلص من الجذب الشديد لكل زخم الحياة واشكالها المتنافرة ..

.. واصبحت فكرة خلق انسان جديد مشكلة لا تقل صعوبة عن خلق كون بلا مادة .. وقد نظر الانسان عن قرب ، فشوهدت سيئاته ، ونزواته ، ورغباته .. وقد وجد انه لا يستطاع حشره ، كما تحشر أفة (بازلاء) في جيب صدار ، ولا يستطاع جذبه من اذنيه ، كما يفعل مع الجياد والحمير .. وبدت وشيكا للاعين مسألة الحرية الانسانية .

فان اي الزام وضغط على ذلك الانسان ، كان كفيلا بأن يخلق من صمته صخباً ، ومن سكونه ثورة ، وقد رفض ذلك الانسان كل حل للحياة يأتيـه – جاهزاً – عن طريـق العلم والاخلاق والدين . ان ما هو حقيقي في الانسان ليس الا جدارته الشخصية في رفض كل قالب سابق عليه .. وقد وجدت الثقافة اخيراً انساناً عجيباً ، ليس الا التمثيل النسبي لكل ما في الحياة من نقص وورم وخبث ورقة وعلو وهبوط ، ليس الا الاندفاع نفسه من طريق يعينه بوعيه وقدراته .

ا – **(الانسان الفورة)** .. : الحر .. والذي نتجت حريته عن كل تلك السلسلة الطويلة من آلام الضغط والاوامر والنظريات ، وعذابات القسر ، والضرورة ، والتي هي اخيرا نتيجة حتمية لفقدانه الظرف الذي ينشيء فيه حريته .. لقـا

---

١ ان معنى ولوج النافة من ثقب الابرة ، ليقابل تماماً فكرة ان (نعيش) الحياة ، بالعقل تارة وبالروح تارة اخرى .. انه ليعنينا في البدء ان نعيش هذه الحياة ..!!

كان الانسان القديم يعطي لحياته معنى ، حين يلقي بنفسه في خنادق الماء، كيما يعبر رفاقه الجنود فوق جثته للنيل من الاعداء وكان يموت راضياً في سبيل عقيدته ، واعياً تمام الوعي ، ان الحقيقة ليست الا موته بالذات ، وكان يدرك ان هـذا الموت (مفروض) عليه ، كيما يعطي لقضيته قيمتها .

ان تلك التضحية التي سمت به ، لم تكن نابعة من صميمه ، ما دامت خارجة عليه .. ما دام اقتناعه بها لم ينبثق عن حريته نفسها : ما دمت احارب في سبيل الدين الذي انشأني عليه ابي وامي فلست اموت (فعلاً) في سبيل ذلك الدين .

انني اموت في سبيل الغل الذي يفرضه ذلك الدين ، وفي سبيل التحقيق الاجوف لكلمة لا تعنيني ولا تمثلني ، فانني - بسذاجة خالصة - اقذف بنفسي في الهلاك (هذه النفس التي لن تعيش سوى مرة واحدة والى الابد) كي اعطي معنى لقضية مفروضة علي ، ولم اقتنع بها .. وليست الحقيقة جامدة ابداً ، تتوارث ، وتعطى للخلف ، وتمنح للشعوب الراغبة فيها ..!

ليس كل فرد الا التمثيل الصادق لحقيقته الخاصة .. حين يعي مأساته .. واذا لم ينشأ رفضي انا في صميمي من الداخل للقسر الذي تفرضه الحقائق الخارجية ، فلست بعد ممثلاً لرفض اي حقيقة منها .. فما هي الحقيقة التي يكون ثمنها موتي ، ان لم يكن ذلك الموت اقتناعاً مني بحقيقة القضية التي احارب في سبيلها .؟! [1]

لا بد ان اكتشف ذاتي في الحقيقة الخارجية التي اكافح لاقرارها ، لا بد من التقائي بها في منتصف الطريق ، فاذا لم يكن هناك مجال لامتزاج عنصرينا .. فان مثل هـذه الحقيقة لا تمثلني ..

ان الحقيقة المفروضة على البشر ، تظل جامدة لفرط (عموميتها ..) فهي تخاطب كل البشر ، ونحن كلنا سواء امامها (المرضى . النوابغ . الاجلاف . ابطال كرة الماء .) ان حقيقة مثل هذه ، ضاغطة وآمرة ، لا تمثل امام البشر الا (الصلابة والصخرية) وهي لا تصبح طيعة وبشرية الا عندما تنزع عنها جمودها اي حقيقتها . وفي اللحظة التي تعرّى فيها عن صلابتها يلحقها التناقض ، ثم تصبح كأن لم تكن ..! ان مثل هذه الحقائق الضاغطة لا تمثل الا نوعاً من (التابو) القبلي ، يفترض طقوساً ومباشرات خاصة ، كالكهانات القديمة : فاي بشر اولئك الذين اقتنعوا مسبقاً بان حرق عذراء امام الريح ، كفيل بدعوة الامطار ؟ وأن هنالك حرمة للحيوان واجبه الصون ، فقد يشتمل على روح انسان يتطهر بالتناسخ ! اي بشر تمثلوا هذه الحقائق ؟ وكم منهم من قتل في سبيل اقرارها ؟ والآن وبعد مضي كل هذه القرون ، كم كانوا مخطئين اولئك الناس ؟! وقد ماتوا في سبيل حقيقة مزيفة ؟

وفي مقابل كل تلك النسخ ، فلنذكر (اخناتون) الذي رفض حقيقة (آمون) الضاغطة ، وانشأ (آتون) حقيقته الداخلية ، والتي ليست الا وهجه الشخصي ملتمعاً في نظائر خارجية ، ليست الا اشعاعه الوجودي ، وفهمه الذاتي للكون والآخرين .

ان الحقيقة لا تمنح طهرها وبراءتها الا بمقدار اقترانها بذات واعية ومتعصبة لها حتى الموت .. وهي لا تفرض ثمرتها ابداً فلا بد من تخطي مرحلة الاقتناع السطحية ، الى درجة (التمثل) الفردي الواعي .

كانت كل حقيقة في البدء ، تحتفظ في صميمها بشيء من الغموض والضبابية ، كيما يظل البشر باستمرار في صورة (دُنيا) وساقلة بالنسبة لشمول الحقيقة نفسها ...

ولكن الحقيقة النسبية الاخيرة ، لم تكن في النهاية الا كشفاً لغموض الذات ، وعرضاً داخلياً للقيم برمتها .. فاذا لم تستجب حقيقة ما لندائي الشخصي .. فهي زائفة حتماً بالنسبة لي.

ونتيجة لهذه الحرية التي مُنحت للانسان المعاصر ، والذي نسي الانسان القديم ، لفرط توثبه ، طريقة استعمالها .. برز (صمام امن) يحد من المفهومات الغريبة عن الحرية ، والتي كانت نشأتها ضرورية كي تتبين مواضع الزلل ، والتي نادى بها (ماكس ستيرنر . باكونين) .. وتمثل هذا الصمام في حاجز اخلاقي : فما دمت حراً اختار ذاتي ، فانني اختار ايضاً بقية الناس .. انني اخلق باختياري الحر نموذج الانسان في واجب وجوده وان اختيارنا لنمط معين من انماط الوجود هو بالوقت نفسه تأكيد لقيمة ما نختاره [1] .. » ونشأ عن ذلك :

ب - **الانسان الوضعية** : (المسئول) عن ذاته ، والذي يخلق جبنه ، وخسته وعظمته .. الانسان الذي يتجاوز ماهو ذاته ، لخلق قيمته الخاصة من جديد ، والذي يرفض المبررات [2]

١ وفي كل يوم يموت مئات من المسلمين والمسيحيين والبوذيين واليهود والزرادشتيين وباعتقاد كل فرد تكمن قضية عجيبة: هي انه قد مات خادماً لحقيقة .! ونسي ان ذاته (كسليان فارس) مثلاً ، لم تكن ذاتاً ، بل كانت امتداداً لابيه (فارس عبد الرحمن) الذي كان امتداداً لأبيه (عبد الرحمن سعدون) وهكذا .. فاي قضية خدمها (سليان بالذات) ؟ واين يبدأ هو نفسه ، كي نعطيه حظه الذاتي ، ولكيما نحدد (خدماته الشخصية) للقضية ؟

١ الوجودية فلسفة انسانية (جان بول سارتر . ترجمة جنا دميان . ص ١٨)

٢ كيف تطمح في ان تكون مغامراً .. فيا انت جبان ؟!

التي توضع له ، راسماً قصده الفردي ، ومتخطياً كل اشارات المرور المنصوبة « انه لا يقول : [لست استطيع الصمود امام التعذيب ، فقد ولدتني امي رعديداً ..] بل يخلق من نفسه الانسان المتخطي لجبنه ، كي يقيم [أناه] الجديدة ، والتي بنيت على حطام ما نصبوه من مفاهيم ..

فاذا كان هذا الانسان مسؤولاً مباشرة امام اختياراته ، فهو مسؤول مباشرة ، بالتالي ، امام الانسانية كلها ؛ فهو لا يختار لنفسه[1] فحسب ، بل وللآخرين كذلك.

ان مسؤوليتنا تلزم الانسانية جمعاء . فاذا كنت عاملاً واخترت الانضمام الى نقابة مسيحية ، بدل ان اكون شيوعياً ، واذا كنت بهذا الانضمام اريد الدلالة على ان الخضوع هو الحل الموافق للانسان ، وعلى ان مملكته ليست من هذا العالم ، كل ذلك لا يلزمني انا فقط ، بل يلزم الانسانية جمعاء ، والسبب في ذلك اني اريد الخضوع في سبيل الكل ....»[2]

انه مسئول عن كل افعاله ، وهي اخيراً ليست الا مقدار انتباهه الذاتي الى مصيره ، ومصير البشر الآخرين .. ان الفرد بالغاً ما بلغ من الحرية بذاته .. معني « بما يجري في العالم ، وهو مرتبط بالاحداث التي تجري في اللحظة ذاتها[3] .. » ومسؤوليته ليست في وقوفه الجامد ازاء جريان الاحداث ، بل بمشاركته الكلية في الفعل .. فاذا ما وعى الفرد مقدار حريته ، فانه يكتسب تلقائياً مسؤولية كل اعماله ، ويصبح شمول ما يقرره بنفسه متعيناً من وجوب نقل (فكرته الخاصة) الى الصعيد العالمي .. انه مسؤول عن كل اختياراته وما من انموذج امامه ، سوى إنسانيته ، فهو لا يقبل ان يكون تحقيقاً لرغبة قديس او سياسي .

.. انه نفسه ليس الا مشروعاً يتحقق من اجل البشر الآخرين .

(من اجل البشر الآخرين ..) ذلك هو الصمام الذي تمسك به الفلسفة الجديدة ، كي لا يسأل واحد (فاذا كنت حراً .. الا استطيع التحلل من الاخلاق ؟ .) ..

ان هذه الحرية اخيراً ، ليست الا قسراً من حتميات الاخلاق اشد قساوة من اي من الحتميات التي عنيت بفرضها الفلسفات .. فان تختار للآخرين ليس إلا ان تغوص واعياً في موقف الآخرين ، وان تدرك مسؤولاً ما هو اكثر القيم انسانية بالنسبة لهم .. فانك تختار لنفسك كما تختار للذين يشاركونك مشكلة العصر ...

.. ان هذا الانسان الذي تكربه مشكلة استعمار الدول الكبيرة ، ويخيفه رق الزنوج ، ويشترك مسؤولاً في ثورة من الثورات ، يلتقي في داخل وعيه بالانسان التالي (الانسان القضاء) : ان هذا الفرد الذي وجد (التضامن البشري) لا يضيعه امامه (على انه قيمة ، ولكن على انه واقع .. انه لا يقول ان علينا ان نكون متضامنين ، ولكننا متضامنون في الواقع ..)[1] ان مسؤولية هذا الفرد ليست في وقوفه الجامد ازاء جريان الاحداث ، بل بمشاركته في العمل ، وهنا يخلق الانسان (القضاء) :

حـ ـ **الانسان القضاء** : والذي ليس الا (من يعمل) واعياً ومسؤولاً في سبيل قيمه التي يضعها لنفسه وللآخرين فليس وعيي لحريتي ، ثم وقوفي جامداً امامها الا رفضاً حقيقياً لحريتي ، فما هي الحرية الموجودة في صميمي ان لم تمارس عملها .. ان لم تحقق بالفعل ازاء تقييماتي للاحداث والبشر والقوانين ؟ .

ان الانسان القضاء ليس الا معنى حياته ، فاذا كانت الحقيقة في البدء لم تكن الا الغرض الذي تعينه مجموعة النبلاء او محكمة التفتيش ، او البابا .. فان الحقيقة في العصور الحديثة ، اصبحت نسبية تابعة للمفهوم الفردي ، والذي لا يخرج عن (حضور وعينا امام بشريتنا ..) فنحن لا نخلق حقائق للكائنات تسكن كواكب اخرى .. اننا نخلق لذواتنا وللآخرين ما نود ان يكون عليه عالم بلغ من تعاسة بشره ان رضخوا لذل المستعمرين ، وبلغ من قذارته ان جعل للبشرة المصبوغة مكاناً جنب اتعس الحيوان ...

ان الحقيقة النسبية ليست منفصلة عن (الحقيقة العامة) فحسب المرء ان يتقدم الى نهاية ذاتيته ليجد روح كل حقيقة[2] .. » ان الانسان القضاء ، ليس الا [صانع ذاته] مستدبراً كل نصائح السابقين وتوجيهاتهم . ان حياته لا تبدأ منذ لحظة

---

١ يلاحظ البون الساحق بين (الحرية) عند (باكونين) وعند (سارتر) ..

٢ « الوجودية فلسفة انسانية» ..

٣ المصدر السابق

١ ر . م . البيريس (سارتر والوجودية) ترجمة الدكتور سهيل ادريس ص ١٢٤

٢ حول مسرحية (روبلس : الحقيقة ماتت) لرينه حبشي . الآداب . العدد . الثاني . السنة الثالثة .

ميلاده.. انها تتحقق في اللحظة التي تصبح فيها طواعية حياته كامنة في يده ... وان اسوأ ما فينا ما ليس قـــابلاً للتغيير [انوفنا. لون بشرتنا . قاماتنا . لحظة ميلادنا وقوتنا..] وان اروع ما فينا ما يقبل التطور والتغير [اخلاقنا . ارادتنا . قدراتنا. رغباتنا] ان العمل ليس الا تحقيقـــاً للفكرة امام ضمور الضرورة ، وبدونه تصبح الفكرة هادمة لنفسها ..

وما معنى (ماء المطهر) في ارض إليوت الخراب ، بدون عودته [الفعلية] للدين المسيحي ؟!

ويقابل الفكرة (الفكرة)، العمل (العمل)، والذي هو سيطرة الدولة على نزوعات الافراد ، وبترها لكل حرياتهم ، وفرضها [لمحض العمل] سلطاناً تؤكد به عبوديتهم لها.

« تبدأ المعرفة بالتمرس العملي..[1]» ان العمل لا يستطيع ان يكتسب (قيمة) جديدة تضاف الى القيمة البادىء من اجلها العمل ، الا ان تكون قيمة فرعية ضئيلة، وان معرفتي لمذاق ثمرة التفاح لن يكونها سوى (مذاقي) لها ، فاي قيمة جديدة ، سوى المذاق ، تضاف الى (معرفتي) من اللحظة التي التهم فيها الثمرة؟ الا ان تكون عدد البذور ولون الثمرة من الداخل ، وهي قيم فرعية ضئيلة ؟!

ان العمل يوسع نطاق الفكره ، ولا يبدلها ليخلق (فكرة جديدة) انه يمطها ، باذراً فيها بذوراً صغيرة ، ولكنه لا يسهم في (خلق) الفكرة .. وعلى هذا فليس اسلوب العمل (العمل) الا ترضية غير مناسبة من الدولة (الارغام) للافراد العاملين الارقاء ، على حساب شجب الفكرة ..

ان (الفكرة) لسابقة دوماً على العمل ، والذي تكمن ضرورته في مجرد تحقيق الفكرة ، وليس في خلق فكرة جديدة .

فاذا جمعنا الانسان الفورة، والانسان الوضعية[2]، والانسان القضاء ، فان ما يخرج لنا ، ليس الا الحصيلة النهائية لكل افكار الديانات وفلسفات الاخلاق والمدن الفاضلة ..

فاذا كان خطأ كل تلك المذاهب ناتجـــاً عن اهتمام كل مذهب بفرض الانسان النموذجي ، فان ما يجعل للفلسفة الجديدة قيمتها هو رفضها الحاسم لذلك النموذجي بالذات .. وبعثها الخارق للضمير الانساني (المعزول عن فكرة العقاب والثواب ، والقائم بنفسه ..) في صورة الزام اخلاقي يفرض نصه الوضاء في كل اختيار بدعوى (.. الاختيار في مصلحة الآخرين ..) ..

انها تخلق انسان الوعي الذي ضنت بخلقه كل تلك الثقافات ، واقفة احياناً عند حد الانسان الوظيفة .. واحياناً عند الانسان المتعة ..

ان الانسان الجديد ليمنح قالبه لكل وضعية وكل بيئة وكل زمان .. فهو لا يشير : (كن كذا .. في وقت كذا ..) .. بل يؤكد : (كن ما تريد جديداً .. في كل زمان ..) .. انه يعطي براءته للبشرية كيما تفيد من خبراته، فلقد جرب كل (السعات) ، غير المناسبة ، والتي انفذوه من خلالها ، طيلة تلك القرون ، ولقد وجد اخيراً ان (سعته) الخـــاصة ليست الا في حقيقته الخاصة ... وقد وجد – بلا غرابة – ان طهره الذاتي ، اخيراً، ليس الا طهر البشر اجمعين ...

القاهرة — **محيي الدين محمد**

صدرت القصة الانسانية الرائعة

اللوحة

مأساة الفنان الذي اغوته المادة

للكاتب الروسي العظيم : غوغول

عربها عن الروسية بأناقة ودقة

الدكتور بديع حقي

ثمن النسخة ليرة لبنانية واحدة — طبعة انيقة

---

١ ماوتسي تونغ (من النشاط العلمي) ترجمة محمد عيتاني ص ٤٩.

٢ « لما كانت الحرية هي الاساس في الشعور بالمسئولية، فان الشعور بالحرية لا يتوافر في شيء قدر ما يتوافر في المخاطر . والمخاطر الاكبر هو الحر الاكبر ..» عبد الرحمن بدوي . (الزمان الوجودي) ص ١٤٨. جدير بالذكر ان ننبه هنا ، للفرق البعيد بين ما يترتب على الحرية من مسئولية امام الضمير الانساني (في صورة اختياري للآخرين) عند (سارتر)، وبين الحرية الفردية المطلقة، والتي يترتب عليها (مخاطراتي) وحسب ، عند الدكتور عبد الرحمن بدوي ...